الأدب وبناء شخصية الطفل بمصر القديمة

أ. د. سماح خالد زهران
أستاذ ورئيس مجلس قسم تربية الطفل
كلية البنات جامعة عين شمس

مقدمة:

تهدف المقالة الحالية إلى إلقاء الضوء على الأدب بمصر القديمة، من حيث أنواعه وطبيعة كل نوع، ثم بيان كيفية استثماره في تربية الطفل آن ذاك وبناء شخصيته، ملقية الضوء على أساليب التربية بمصر القديمة. وهي بهذا تعود لصميم تراثنا؛ من أجل أخذ أفضل ما فيه، والتعلم من أجدادنا كيفية توظيف الأدب في بناء وصقل شخصية الإنسان فترة ازدهار ونمو وأوج الحضارة المصرية القديمة.

١ – أدب الطفل: أهدافه، وموضوعاته، وصفاته:

أدب الطفل موجه لشخصية إنسانية في طور الإعداد والنمو والتأهيل؛ لذلك فهو يوظَّف من أجل تنميته فكريًا وعقليًا واجتماعيًا ووجدانيًا وخلقيًا، كما أنه ينمّي وعيه بالحياة، وبوطنه، وبالبيئة من حوله بمفرداتها البشرية والطبيعية، ويروح عن نفسه بما يتضمنه من قيم جمالية وأساليب بلاغية؛ لأن الترويح والتسرية والبهجة مطلب وهدف تربوي في إذكاء وتنمية روح الشخصية بحد ذاته.

وأدب الطفل يسهم إلى حد كبير في تحقيق صورة من صور الانسجام والتوازن للطفل إذا نجح في رسم الصور المؤثرة الصحيحة.

ومن أهم موضوعات أدب الطفل:

- الموضوعات التوجيهية: والتي تشمل القصة الاجتماعية؛ لتنبيه الذهن وتوجيه الانتباه لشخصيات المجتمع وطبائعها، بما تتضمنه من قيم أخلاقية.
- وكذلك الموضوعات المتعلقة بالعلوم التطبيقية؛ لتوسيع المدارك حول الحياة والبيئة والعلوم المختلفة، وإذكاء روح المعرفة، وتنمية الخيال.

ومن صور فنون أدب الطفل:

القصة، والشعر، والمسرح، والدراما أو القصة الممثلة المسموعة أو المرئية، وكذلك مجلات الأطفال بما تتضمنه من صنوف تعليم وتوجيه وترويح مختلفة.

ويتصف أدب الطفل من حيث الأسلوب والمضمون:

بسلاسة الأسلوب ووضوحه بما يناسب المرحلة العمرية. ما بين التركيز على الصور أولًا، ثم الصور مع كلمات بسيطة بخط كبير لاحقًا، ثم صور أقل مع كلمات أكثر، وأخيرًا اللغة تسود بالأساس، مع عدم الاهتمام بالصور أو ندرتها، فمن كتاب مصور مقروء من خلال صوره إلى كتاب مقروء من خلال كلماته، مع تطور اللغة والقدرات القرائية.

أما من حيث المضمون فيتنوع من حيث الحكي على لسان الحيوان، وهي الصورة المحببة المقربة لصغار الأطفال، ثم الحكي الاجتماعي، ومع النمو يظهر أدب الخيال العلمي والمغامرات والاستكشاف والروايات الطويلة ذات البطولات لاحقًا. (محمد حسن بريغش، ١٠٣-١٢٠).

٢-أدب الطفل عبر العصور: تطوره، وتنوعه، واختلافه

وجد الباحثون نماذج مسجلة لأدب الطفل في العصر الفرعوني، منها حكايات الجدات للصغار، ومنها حكايات وقصص الأمهات للصغار. ومن القصص المسجلة: قصة (جزيرة الثعبان)، وقصة (التاج والفيروز)، وقصة (النسر المسحور). وكانت تصاغ بأسلوب يلائم الطفل ويؤثر فيه بالتكرار؛ لتعميق الفهم وإيصال المعنى، والحبكة الدرامية الخاصة به تنتقل بشكل جيد بين الأحداث.

كما ظهر للطفل أدب خاص به أيضًا في حضارات الشرق الأقصى القديمة كالهند والصين، وفي أوروبا بالقرون الوسطى وكذلك في شبه الجزيرة العربية وفي الأمريكتين مع بدايات القرن العشرين.

ومن الحكايات التي انتقلت عبر الثقافات والأزمنة قصة السندريلا والجميلة النائمة، وقصص ألف ليلة وليلة.

وفي العالم العربي الحديث ظهرت مجلات الأطفال إلى جانب الكتب والقصص المسموعة والمصورة والمقروءة. ومن أشهر أدباء الطفل في بدايات القرن الحادي والعشرين: محمد الهراوي، وكامل كيلاني الذي يعد بتقييم الكثيرين

من المختصين الأب الشرعي لأدب الأطفال باللغة العربية. ومن رواد شعر الأطفال أيضًا بمصر والعالم العربي مع مطلع القرن العشرين أمير الشعراء أحمد شوقي. (سيد القماحي، ١-١٠).

٣-أنواع أدب الطفل بمصر القديمة، وأشكال الأدب عمومًا بمصر القديمة

كان الأدب المصري القديم يقرأ ويعلم ويدرس للتلاميذ والشباب في المدارس، وكان الطلاب ينسخونه؛ لتعليمهم اللغة البليغة التي كان يتمنى كل فرد أن يتصف بها.

وعرفت الكتابة الأدبية بمصر القديمة من بداية الأسرة الأولى، وكان للأدب المصري فترات ازدهار، حيث يزدهر في وقت الشدة فيظهر الحكماء والأدباء والشعراء، كما كان في عصر الانتقال الأول فترة الثورة الاجتماعية الأولى، وما تلاها من عصر الدولة الوسطى التي تعد أزهى فترات الأدب المصري. وقد وصل الأدب المصري لمكانة عظيمة بين حضارات العالم القديم. ومن أنواعه:

أدب الأسطورة، وأدب القصة، وأدب النقد والسياسة، وأدب الحوار، وأدب المديح، وأدب الملاحم، وأدب الحكم والنصائح، وأدب الأناشيد، وأدب الغزل، وأخيرًا أدب الرسائل.

وأدب الأسطورة كان يصوغه الكهنة ورجال الدين، وغالبًا ما كان يتحدث عن الآلهة وصفاتهم وأفعالهم. أما أدب القصة فقد عرف منذ فجر التاريخ، ويقصد به رواية العبرة والموعظة الحسنة. أما أدب النقد والسياسة فكان يركز على وصف أحوال البلاد الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية. ويندرج تحتها تحذيرات الحكماء للساسة والحكام.

واتسم أدب الحوار بأنه أدب المحاورة، حيث يحاور فيه الإنسان نفسه السعيدة أو المعذبة المقهورة من الظلم – كما في بردية (اليائس من الحياة)–، أو يحاور الكائنات من حوله: الحيوان، والطير، والنبات، والمعبودات. وفيه يصف الأديب الواقع والحالة الحقيقة والتجارب الشخصية لنفس الراوي، ويقدم خبرة الإنسان في الحياة.

أما أدب الملاحم والمديح فهو موجود بكل زمان ومكان، حيث مديح الملك، وصفاته العسكرية، وشجاعته الخارقة للعادة.

وقد اهتم المصري القديم اهتمامًا بالغًا بسرد الحكم والنصائح والأدب الخاص بهما، ويعد محببًا لقلوب الجميع؛ لأنه خلاصة تجارب الحياة، يبين للناس طريق السعادة، ويضع بين أيديهم المثل العليا التي يستطيعون الاقتداء بها، وتنير لهم الحياة وتهديهم للآخرة الطيبة وتنظم العلاقات الاجتماعية بينهم. وأيقن المصري القديم أنه إذا نجح في نشر نصائحه القيمة، فقد خلد اسمه عبر العصور، وكان المصري القديم يختار أحب الناس له ليضع نصائحه نصب أعينهم كالأبناء والتلاميذ.

وفي هذا المجال خاصة كان يوظف الأدب لتلاميذ المدارس في تنشئتهم، إذ كان الآباء بمصر القديمة يشرفون على تربية أولادهم، ويعنون عناية خاصة بإرسالهم للمدرسة ليتعلموا؛ لأن التعليم عندهم كان هو السبيل الذي يفتح أمامهم باب مناصب الدولة جميعها، ويحقق لهم أسباب السعادة وسمو الشأن، ويصل بهم لأعلى المراتب. ومن أقوالهم: الرجل المحظوظ هو الذي وضع العلم في قلبه، وفضله على كل عمل آخر. والكاتب مهنة عظيمة؛ إذ تجلب أدوات كتابته البهجة والثراء.

ومن أقوال الآباء لأبنائهم: "إني أضعك بالمدرسة مع أولاد العظماء؛ لكي أربيك وأعلمك هذه المهنة العظيمة، فكن مجتهدًا ولا تكن خاملًا، وإلا عوقبت بشدة. ولا تهمل دراسة الكتب، ولا تسير وراء نزواتك وإلا ستضطرب".

أما أدب الأناشيد والغزل والرسائل فكان ينشد بالمناسبات الدينية وعند المقابر والأهرامات، كما في نصوص الأهرام والتوابيت وكتاب الموتى، وأناشيد أوزوريس والنيل، وإله الشمس، وإخناتون.

وتمثل أدب الغزل في أغاني الحب، وكان يستلزم قوة في المعنى وجمالًا في الأسلوب، وصدقًا في التعبير؛ حتى يؤثر في عواطف السامعين.

وأخيرًا اعتمد أدب الرسائل على كتابة الرسائل سواء بالدواوين الحكومية أو الرسائل الشخصية بين الناس وبعضهم، وكذلك بين المعلمين والتلاميذ أو الآباء والأبناء. ولكل غرض ديباجته الخاصة به. (أحمد محمد البربري، ١-١٦٣).

٤-حياة الطفل بمصر القديمة

كان الصغار من الجنسين لا تختلف صفاتهم عن أطفال اليوم، وكذلك تصرفات المربين نحوهم، فالقصص تروى للصغار أثناء الليل لتساعدهم على النوم. إلا أن عهد الطفولة كان أطول مما هو عليه الآن، فالصغير لا يغيب عن عيني أمه ثلاث سنوات متتالية، حيث تحمله على كتفها أينما توجهت.

وإذا مرض الصغير دعت أمه الطبيب لمداواته. وأحيانًا كان يوصف اضطراب الصغير على أنه نوع من السحر، ويعطى له وصفة من كلمات سحرية غامضة تربط على العضو المضطرب الموجوع.

وكانت ألعاب وأدوات لهو الأطفال كثيرة تشبه في بعضها ما تعارف عليه لاحقًا كألعاب القماش والكرة.

وكان الصغير إذا ما بلغ السنوات الأربعة يذهب إلى الكتاب، وإذا كان عنيدًا يعاقب، وكان وقت المدرسة يأخذ نصف اليوم، فإذا انقضى تقرغ الأطفال للعبهم ولهوهم في فرح وسرور. وكان الطفل يتعلم القراءة والكتابة والحساب والعلوم المختلفة مع الأدب؛ لتربية وجدانه، وصقل أخلاقه، وتنمية سلوكه الاجتماعي الإيجابي مع الغير.

وحياة الطفل المصري القديم لم تكن كلها تعليمًا، بل كان يقضي أيام العطلات مع عائلته في التنزه في الطبيعة والصيد. (جيمس بيكي، ١١-٥٣).

٥-الشخصية... ما هي؟ وكيف تبنى في علم النفس؟

تعرف الشخصية في علم النفس على أنها نظام متكامل من الصفات التي تميز الفرد عن غيره. فالشخصية وحدة متكاملة من الصفات التي تتفاعل مع بعضها البعض لتعطي لنا شخصًا متفردًا في ذاته عن الآخرين، وتطبع سلوك الفرد بطابعه الخاص.

ونمو الشخصية يحدث نتيجة تفاعل ذات الفرد الفطرية مع بيئته الاجتماعية، وكان فرويد أول من وضع تصور لهذا التفاعل حينما تحدث عن الذات الغريزية الفطرية (الهو أو الهي)، ثم هوية الفرد ووعيه بذاته وبالعالم من حوله في (الأنا) الذات الواقعية، ثم الذات التي نصبو إليها (الأنا الأعلى) والتي تشكل جهة ضبط ورقابة لتحقيق الذات المنشودة نتيجة التفاعل مع الواقع الاجتماعي وما يعكسه علينا من تطلعات وآمال. (أحمد عزت راجح، ٤٥٧، ٤٩٥).

وتعد القصة خاصة وأدب الطفل عامة كوسيلة تواصل بين الصغار ومربيهم سواء الأم والأب أو الجد والجدة أحد أدوات تشكيل الشخصية المهمة من بواكير الحياة. فهي لا تعرف فقط الصغير بالبيئة من حوله، ولكن أيضًا تنمي هويته ووعيه بذاته وبالآخرين؛ نتيجة تفاعله مع الراوي، كتفاعله مع متن القصة على حد سواء. من هنا يكتسب وعيًا بالسلوك الذي يميز شخصيته عن غيره، والذي يتم صقله بتفاعله مع بيئته الاجتماعية لتقويته أو محوه، حسب متطلبات ثقافة تلك البيئة.

٦-أساليب التربية بمصر القديمة

اعتمدت أساليب التربية بمصر القديمة على عدة خصائص مهمة، أذكر منها:

أ- الإقناع

وذلك بطرق شتى، مثل التعقيب المنطقي على الأشياء، أو الاستشهاد بالمثل السائر، أو استخلاص العبرة من أحداث وقعت، ومحاولة ربط السبب بالنتيجة، وأخيرًا الوازع الديني.

ب-الاعتدال والتوسط

ويظهر في اختيار السلوكيات المختلفة بالمواقف المختلفة، وفي معاملة الفرد لغيره، وفي معاملته لنفسه. حيث دعت التعاليم المصرية القديمة للتوسط ما بين التزمت والاستهتار، ومن تعاليم بتاح حتب الشهيرة لابنه: "ساير نفسك ما حييت ولكن لا تتجاوز". وكذلك قوله: "إن قدحًا من الماء يروي غلة ظامئ، وملء الفم من حشائش الأرض يقيم أود القلب"، و"رب حسنة تقوم مقام الخير كله"، و"نذر يسير يغني عن الكثير كله". وتشير العبارة الأخيرة لمبدأ القناعة مع الاعتدال والتوسط.

وهكذا صورت المتون المصرية أساليب التربية بمصر القديمة على أنها تميل للضبط والحزم، مع التوسط والاعتدال بالاقناع والمنطق والحوار، وليس بالقصر والتسلط والقهر.

وقد تناقلت المدرسة المصرية القديمة ثلاث موضوعات أدبية بعينها في الأدب المصري القديم متضمنًا في مناهجها:

تعاليم خيتي، وتعاليم امنحات الأول، ونشيد النيل. بما يدعو للاعتقاد أن هذه متلازمة ذات هدف تعليمي وتربوي أصيل؛ فتعاليم خيتي كانت ترغب في حياة العلم ومستقبل الكاتب، بينما تعاليم امنحات الأول كانت تدعو للتطبع بالحذر عن طريق وصفها لصنوف من طباع الناس وأطماعهم. وكلاهما ذو أسلوب أدبي جميل ويسير يؤثر في النفس، ويستحثها على التدبر والعمل بما علمته وأثر في وجدانها. أما الموضوع الأخير، وهو نشيد النيل، فاختياره ليس فقط بدافع التنوع من حيث الصيغ الشعرية الجمالية مع الأدب النثري السابق؛ ولكن أيضًا لأنه يتناول جود الطبيعة وجمالها ونعم الله؛ فيغرس في ذهن الدارس الشكر وعرفان الجميل، وهي نواحي مكملة للموضوعين السابقين.

واعتمدت طرق التدريس الأدبي على عدة طرق، هي:

النسخ المباشر، أو الإملاء، أو الكتابة من الذاكرة، أو تمارين الإنشاء للتلاميذ.

وتضمن ذلك كل صنوف الآداب المذكورة سابقًا بمصر القديمة. (عبد العزيز صالح، ٢٤٥-٢٩٤).

٧-كلمة الختام، والمستنتج:

يمكنني أن أختم المقالة البحثية الموجزة الحالية من العرض السابق بالمستنتجات التالية:

-عرف المصري القديم الأدب، وأنتجه وأبدع فيه من آلاف السنين.

-تنوعت صور الإنتاج الأدبي للمصري القديم في صنوف وأشكال عدة، منها: النثر، والشعر، وأدب الرسائل، وأدب الأسطورة، والملاحم والقصص والأناشيد الشعرية.

-استخدم المصري القديم الأدب في كل مناسبات حياته المختلفة: أفراحه وأتراحه، واستخدم الجميع صنوف الأدب للتعبير عن المشاعر، بجميع الأعمار والطبقات.

-استخدم المصري القديم الأدب في تربية وتنشئة أبنائه.

-تعددت أساليب التنشئة باستخدام الأدب ليفيد منها المتعلم على كافة جوانب تنمية شخصيته.

-تضمن المنهج المصري القديم موضوعات أساسية متوارثة لتنمية شخصية الصغار بشكل سليم من خلال الأدب؛ لتنمي وجدانه ولغته ووعيه الاجتماعي.

-علينا أن نعود للتراث؛ لنفعل مثلما فعل أجدادنا وقت أوج ازدهار حضارتنا في بناء شخصية الإنسان من خلال الأدب، مستفيدين بوعيهم المبكر في التربية والتعليم على هذا النحو المتطور؛ من أجل تكوين وتنمية وعي جمعي مشترك ووجدان مشترك من شأنه إذكاء الهوية الوطنية الجمعية، الأمر الذي يعود بالنفع على الجميع في تلاحم الأمة وبنائها بناءً متماسكًا قويًا متطورًا.

المـــراجع:

- أحمد عزت راجح: أصول علم النفس: القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥.
-أحمـــد محمـــد البربـــري: الأدب المصـــري القـــديم، ٢٠٠٦. www.askzad.com كتاب رقم ٠٠٠٠٣٧١١- ٠٠١.
- چيمس بيكي: ترجمة نجيب محفوظ: مصر القديمة: مؤسسة هنداوي الطبعة الإلكترونية المحدثة، ٢٠١٧، صدرت بالمملكة المتحدة في ١٩٩٢.
-عبد العزيز صالح: التربية والتعليم في مصر القديمة القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مصريات، ٢٠٢١.
-سيد القماحي لمحات سريعة في أدب الأطفال. ملفات دار الكتب والوثائق على الشبكة العنكبوتية، ٢٠٢٣.
-محمد حسن بريغش: أدب الطفل أهدافه وسماته، سوريا: مؤسسة الرسالة، ط٢. ١٩٩٦ موقع مكتبة الاسكندرية الإلكتروني للكتب.